

لرؤب والتاريخ

## مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٢٠ -

تحت راية القرآن

الجديد والقديم...! هنا ميدان الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره؛ فنذ نخله أديب منهم زعامة المذهب القديم في مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣، نشط الرافعي ليجاهد هذه الدعوة التي يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النيل من العربية في أرفع أساليبها، وسبيلاً إلى الطعن في القرآن وإعجاز القرآن، وياً إلى الزرابة بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعرويان. ومن ذلك اليوم نصب الرافعي نفسه ووقف قلمه على تفنيد دعوى التجديد؛ فجعل همه من بعد أن يتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليرد عليهم ويكشف عن باطلهم. وما كان يرى في عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن؛ فمن ذلك كان اسم كتابه الذي جمع به كل ما كتب في الحركة بين القديم والجديد، من سنة ١٩٠٨-١٩٢٦ هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد، وكانت مزقاً مبعثرة في عديد من الصحف والمجلات لجمعها بين دفتي كتاب، فاجتمع بها رأى الرافعي في القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كتب له؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك، ويتوجه إليه الخطاب والرد في كل ما بقي من صفحات الكتاب؛ فكأنما أنشأه الرافعي وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده، وكأنه هو وحده الذي يدعو إلى الجديد وينصر له ويحمل رايته؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان رأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين في الأدب وفي الدين وفي القرآن، ويحتمد فيها الجدل بين حكومة عدلى وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة؛ وإنها جلسة ممتعة

خليفة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبي وليس الكتاب على استواء واحد في أسلوبه؛ ففي المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعي هادئاً متزاناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأي ورحابة صدر الناقد البريء؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدر ما، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذي كنت ترى، وطالمتك من صفحات الكتاب صورة جبهة للرافعي الناثر المفيظ المحقق، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطول، مُزبد الشدقين كالجلج المالح، متفتح الأنف كأنما يشم ريح الدم، سريع الوثاب كأن خصماً تراه له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر، وهو هنا يعنى طه حسين وحده؛

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتي كتاب؛ فإن هذه المقالات وإن صوّبت إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كتبت له؛ وقد كان بينها في التاريخ الزمني سنوات وسنوات، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام

على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس الأدب، وتقرأ له - من الكتاب نفسه - رده في سنة ١٩٢٦ على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب، فتراه ينكر عليه هذا الجديد؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعي لم يكن يعنى بمحلمته أن يناهض كل جديد، بل كانت غايته أن يرد إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن ينتقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين

ليس يعنى هنا أن ألخص رأى الرافعي في الجديد والقديم، فراجع البحث عن رأيه في ذلك واسمه مستفيضة، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كاشف؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأي والنظر، وله منى غير هذا المجال من الحديث

\*\*\*

والآن سأجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه في سائر؛ ويبدأ هذا الجزء من صفحة ١٠٤ - ٤٠٥ وفيه تفصيل ما كان بين الرافعي وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول «رسائل الأحزان» إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب «في الشعر الجاهلي»، وهو فصول عدة، فيها ألوان من النقد مختلفة، وأساليب في البيان متباينة؛ فيها

طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة في كتاب المركة . وإن قارى هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لونا طريفاً من أدب الرافي ، لو أن الظروف واتته لأتمه فأنشأ به في العربية إنشاءً جديداً له خطر ومقدار . على أن الرافي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بمد الفصل الأول ، ما تلقى من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم في النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كلية ودمته مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسىء ، كما كان يعجب فلان بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة ... واتته الرافي من حديث كلية ودمته بمد انتهاء هذه المركة وظل مهملًا (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها في سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ في إبان المركة بينه وبين العقاد حول « وحي الأربعمين » فنشر الفصل التاسع منها في البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » ثم نشر في الرسالة سنة ٩٣٥ الفصل العاشر بعنوان « كفر الدابة ! » يعنى بها مصطفي كمال وحركته الدينية ، وفصلاً آخر لا أذكره

وقد كان في منية الرافي أن يتم هذه النسخة من كلية ودمته يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه ، ولكنه لم يوفق ، وكان في ذلك خير ؛ فهذه الفصول في موضعها من الكتب التي نشرت بها أجمل وأخف ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويواعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لا اتصال بينها في موضوعها بحيث تصلح للنشر متساقطة متتابعة كما تتساقق الفصول والأمثال في كتاب ابن المقفع

\*\*\*

هذا مجمل الرأي وملخص الموضوع في كتاب المركة تحت راية القرآن وما احتواه . وهو وكتاب آخر اسمه « على السفرد » خلاصة مذهب الرافي في النقد وأسلوبه في الجدل ؛ وفيها أشلاء المركتين الطاحتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدماهما ، ودمامهما ، ولهبهما المستمر ، ودخانها الخائق ، وغبارها الكثيف .. لو مجرد هذان الكتابان من بعض ما فيها لكانا خير ما أنتجت العربية في النقد ، وأحسن مثال في محاكاة الرأي بالرأي مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولكن وأسفاً ، إن الإطار يجب ما في الصورة من جمال ، فنذا — غير مالك الصورة — يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجعلوا الصورة في جملها على أعين الناس !

محمد سعيد الصبره

« شبرا »

تهكم المر ، وفيها المهجوم العنيف ، وفيها الصانعة والحيلة ، وفيها رد الرأي بالرأي ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الوهمة بين فلان وفلان ، وفيها الزلني إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيها فن بديع طريف ، فيها حكي الرافي عن كلية ودمته ... ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنت نظرت إليه في جلته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب ألهم من التهكم يفن الرافي فيه فنوناً عجيبية حتى يبلغ نصف المقال ؛ ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبي ، لولا عبارات وأساليب هي لازمة من لوازم الرافي في النقد إذا كان بينه وبين من يتقده نأر ... بكلى إنها نموذج عال في النقد العلمي الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كلية ودمته

على أن مبالغة الرافي في التهكم قد شققت له فنوناً من المعاني والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة في أدب الإنشاء ؛ وأبدع هذه الأساليب حديثه عن كلية ودمته وما تحكما من الرأي في طه حسين . وكلية ودمته كتاب في العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفي صادق الرافي . وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة ، في مقالة من مقالات الرافي في طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كلية ودمته ليقول على لسانها كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه — على المزاح — إلى ابن المقفع فلا يشك أحد في صدق روايته ، فنشره بعد ما قدم له بالكلمة الآتية : « عندى نسخة من كتاب كلية ودمته ليس مثلها عند أحد ... ما شئت من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعت إليها اليوم فأصبت فيها هذه الحكاية ... » قال كلية : « أما تضرب لي المثل الذي قلت يا دمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة في قدر ذراع ... ومضى في اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأي دمنة في الدكتور طه حسين ... (١)